المحاضرة 11: علم اجتماع السياسي

1- نشأة علم الاجتماع السياسي:

يعتبر علم الاجتماع السياسي كفرع من فروع علم الاجتماع، علما حديثا، إلا أن الفكر المتصل بطبيعة النظام السياسي والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأشكال السلطة، قديمة قدم التفكير الإنساني، وما ينطبق على علم الاجتماع العام في هذا الصدد ينطبق أيضا على علم الاجتماع السياسي كفرع منه، وبالتالي مر علم الاجتماع السياسي بنفس الطريقة التي تطور بها علم الاجتماع.

وبدأت تظهر مواضيع حديثة وواسعة على الساحة السياسية مؤخرا في هذا العلم، نظرا للمشكلات السياسية التي طرأت على الساحة الدولية، ومن أهمها التنمية السياسية، باعتبارها جزءا من التنمية الشاملة، ويدرس الثقافة السياسية والوعي السياسي، والمشاركة السياسية، (كمدى مشاركة المواطنين في العمليات السياسية)، والاتصال السياسي، والحريات السياسية، والسياسة الدولية في النظام العالمي الجديد، وأثرها على السياسات الاجتماعية، والاقتصادية، والأمنية والمحلية والقومية، والإرهاب السياسي والثورات العربية وغيرها.

حيث وكما أنه ليس هناك اتفاق تام بين العلماء والمتخصصين حول تعريف عام وموحد لعلم الاجتماع السياسي أو الاتفاق حول مفهومه وماهيته، كذلك ليس هناك إجماع حول الجذور التاريخية والفكرية له من حيث بدايتها، فبعض العلماء والمتخصصين يرجعون نشأة علم الاجتماع السياسي إلى عصر النهضة وعصر التنوير، فيما يرجعه البعض إلى العلماء العرب في عهد ابن خلدون، اعتبر "غاستون بوتول Gaston Bourhoul" أن "أفلاطون" و"أرسطو"، من رواد هذا العلم، كذلك من حيث مفهوم علم الاجتماع السياسي، نجد بأن قيام الثورة الفرنسية كان عاملا مهما في إطار تحلل العلاقات المجتمعية، وظهور نمط جديد من التفكير السياسي، إضافة إلى حركة الإصلاح الديني والثورة الصناعية اللتين كانتا من العوامل الحاسمة في تكوين المجتمع الأوروبي الحديث، الذي أدى إلى تركيز اهتمام العلماء نحو تحليل وتفسير العلاقات السائدة بين المجتمع والدولة، أي الموضوع الأساسي الذي يهتم به علم الاجتماع السياسي، ترتب عن ذلك وعلى مدى قرن ونصف دخول مفاهيم جديدة إلى الحياة السياسية في مجتمعات الدولة الحديثة مثل الانتخاب، والأحزاب السياسية، والبيروقراطية والمجتمع المدني، والرأي العام، إلى غير ذلك من المسائل الأساسية التي تعتبر محور اهتمام علم الاجتماع السياسي اليوم.

2- موضوع وأهداف علم الاجتماع السياسي:

2-1- موضوع علم الاجتماع السياسي:

لم يظهر علم الاجتماع السياسي كعلم مستقل عن حقل علم الاجتماع، وحقل العلوم السياسية إلا خلال الأربعينات من القرن العشرين وذلك لحاجة المجتمع إليه، بعد اختلاط الظواهر الاجتماعية بالظواهر السياسية، وتعقد أسباب الحوادث السياسية والآثار التي تتركها هذه الحوادث على الإنسان والمجتمع، إن علم الاجتماع السياسي يدرس الظواهر السياسية دراسة تعتمد على خلفية البناء الاجتماعي، طالما أن المؤسسات السياسية هي جزء من المؤسسات الاجتماعية البنيوية، وأن الفعاليات والنشاطات السياسية تترك أثارها الفاعلة والعميقة على جميع مؤسسات ومنظمات المجتمع، بحيث تتغير هذه من نمط لآخر خلال فترة زمنية محددة، إذن ظهر علم الاجتماع السياسي لدراسة الظروف والمتغيرات الاجتماعية التي تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الحوادث والظواهر السياسية، التي تأخذ مكانها في المجتمع، ولتعليل وتفسير نتائج الحوادث السياسية على التفاعلات الاجتماعية والأنماط السلوكية في المجتمع (إحسان محمد شفيق العاني، 1986).

2-2- أهداف علم الاجتماع السياسي:

إنه من الشروط المهمة لعملية أي علم، أن تكون له أهداف محدودة وواضحة يسعى لتحقيقها، وعلم الاجتماع السياسي كعلم مستقل ومتكامل له أهداف يعمل على الوصول إليها، نذكر منها(خليل أحمد خليل، 1995):

- **الوصول إلى مجموعة من القوانين والتصورات العامة والأفكار الجديدة.**
- **تبني المناهج السوسيولوجية التي يستخدمها علماء الاجتماع في مختلف تخصصاتهم.**
- **دراسة الظواهر والعمليات والأنساق السياسية.**
- **دراسة طبيعة التغير المستمر الذي حدث ويحدث على المكونات البنائية والوظيفية للمؤسسات والنظم السياسية المختلفة.**
- **معالجة التغيرات المستمرة على نوعية الأيديولوجيات السياسية التي عرفتها المجتمعات البشرية (الشيوعية، الماركسية، الرأسمالية، الليبرالية، الفاشية، العنصرية، وصولا إلى الإيديولوجية الجماهيرية).**
- **دراسة قضايا ومشاكل التنمية السياسية.**
- **التعرف على مكونات وطبيعة النظم السياسية.**

3- علاقة علم الاجتماع السياسي بعلم السياسة:

ترتكز العلوم السياسية على دراسة الدولة وعلاقتها بالأفراد الذين تحكمهم هذه العلاقة، التي غالبا ما تقوم على قواعد مقررة ومقبولة وتوصف بالقانونية والشرعية وتهتم بذلك بدراسة الأحزاب السياسية، والسلوك السياسي، والقيادة، والجماعات الضاغطة، والرأي العام، وأسس الإدارة العامة، فالعلوم السياسية تدرس الدولة دراسة مفصلة، وتهتم بتحليل العلاقة بين الأفراد والسلطات، وتتناول العلاقات الدولية، والسياسة تعني عموما تلك الخطة أو التوجه أو الاستراتيجية التي يعتمدها مجتمع ما في نظام لرسم أهدافه وغايته على المدى القريب والبعيد، ومنه لا يمكن لعالم الاجتماع أن يتجاهل تأثير النظم السياسية على بقية النظم الاجتماعية الأخرى، كتأثير النظام السياسي على طريقة ونوع التعليم الشائع، أو على النظام الأسري، كما تحتاج العلوم السياسية إلى اختصاص علم الاجتماع، وذلك لقدرته على تزويدها بالحقائق والقوانين الاجتماعية التي تفسر السلوك السياسي تفسيرا علميا وعقلانيا، وكفاءته على تخمين النتائج الاجتماعية التي تتمخض عن السلوك السياسي، والأحداث السياسية التي تأخذ مكانها في المجتمع، ويساعد العلوم السياسية على فهم المؤسسات السياسية من خلال دراسة علاقتها بالمؤسسات البنيوية الأخرى التي تتفاعل معها في الحياة العملية.

من الثابت أن علم السياسة لا يتم في فراغ وإنما في نطاق معين ولقد زاد الاهتمام بدراسة تأثير المجتمع على النشاط السياسي وأصبح هذا اللون من المعرفة، شكل قاعدة لدراسة علم الاجتماع السياسي، وهناك ارتباط بين علم السياسة وعلم الاجتماع، فعلم السياسة يأخذ من علم الاجتماع بعض العناصر التي تفيد في نطاق التحليل السياسي، ذلك لأن هناك العديد من المواقف السياسية لا يمكن فهمها دون التحقق في جذورها السياسية، كما أن علم السياسة لا يمكن أن يتطور دون الإحاطة الكاملة بالعوامل والتيارات السياسية القائمة في المجتمع في كل مرحلة من مراحل تطوره ونموه (هشام محمود الأقداحي).

4- المقاربات النظرية في علم الاجتماع السياسي:

ظهر علم الاجتماع السياسي كدراسة علمية منظمة للمجتمع والعلاقات والنظم الاجتماعية، بعد أن كان الفكر الاجتماعي قد قطع شوطا طويلا عبر التطور التاريخي للمجتمعات البشرية ويمكن تمييز التيارات الأساسية في الفكر السياسي ما قبل العلمي التي كانت بمثابة روافد لصياغة نظرية اجتماعية في السياسة كما يلي:

4-1- الفلسفة الإغريقية:

تمثلت في أعمال "أفلاطون" و"أرسطو"، حيث يعد "أفلاطون" من أهم مؤسسي هذا العلم في أواخر القرن 4 قبل الميلاد، وعلى الرغم من أنه كان فيلسوفا مثاليا، إلا أنه نظر للظاهرة السياسية من زاوية مجتمعية، فلقد اعتنى عند دراسته المدينة الفاضلة بتأثير التغيرات الاجتماعية على السياسية والحكم، كما اهتم بالمؤسسات الاجتماعية، وفعاليتها على تنشئة الأفراد تنشئة سياسية سليمة، ومنه يعتبر أفلاطون من الأوائل الذين اهتموا بموضوع التنشئة السياسية واعترها من أهم مواضيع علم الاجتماع السياسي (مولود زايد الطيب، 2007).

أما "أرسطو" فتؤكد رؤيته السياسية على الاجتماع الإنساني، (الناس يجتمعون من أجل الرغبة القوية في عيشة الجماعة ، بمعنى الارتباط بالمجتمع الإنساني'، فلقد وضع دعائم مجتمعه الفاضل كما تصوره أفلاطون في جمهوريته مؤكدا أن المجتمع أرقى الحياة السياسية، وأن الغاية من الاجتماع الإنساني هو توفير سعادة الناس (مولود زايد الطيب، 2007)، والفكرة الأساسية التي تطرق إليها "أرسطو" أن الأسرة هي أول خلية اجتماعية، أو هي الوحدة الطبيعية التي نتجت عنها القرية، ومن اجتماع عدة قرى تتكون المدينة السياسية، أو الدولة، وعلى ذلك تكون الدولة شيئا طبيعيا وهي أكمل الوحدات الاجتماعية وأوضحها هدفا، وتضمن للأفراد السعادة المادية والمعنوية، فلا تكون مقصورة على توفير الحاجات الضرورية فقط، وإنما غايتها توفير أسباب السعادة المادية والأدبية التي تتعلق بعقل الإنسان، وتشمل التربية والتعليم والثقافة بجانب ما توفره من الاستقرار والأمن في الداخل، والمدينة السياسية سابقة على القرية والأسرة والأفراد يتضافرون ويتحدون للإبقاء على سلامة المجتمع وعليهم أن لا يتعارضوا مع مصالح الدولة وغاياتها العليا (مصطفى الخشاب).

4-2- ابن خلدون:

يشمل علم الاجتماع السياسي عنده على كيفية تكوين الدولة والسلطة، حيث أوضح كيف تنشأ النظم السياسية والعوامل الفاعلة في ازدهارها وسقوطها، ووضع بذلك أساس الدراسة التاريخية المقارنة للنظم السياسية، ومدى علاقة ذلك بقوة العصبية أو ضعفها وظهر ذلك في قوله: "أعلم أن صاحب الدولة إنما يتم أمره بقومه، وعصابته وظهراؤه على شأنه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقلد أعمال مملكته ووزارة دولته وحماية أمواله، لأنهم أعوانه على الغلب وشركائه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته ما دام الطور الأول للدولة، فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم، والانفراد بالمجد، ودافعهم عنه بالمراح صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه، واحتاج في مدافعتهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم وذلك حين أذن مؤذن باهتمام الدولة، وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية الذي كان بناء الغلب عليها، ومرض قلوب أهل الدولة، ولا يطمع في برئها من هذا الداء، لأنه ما مضى يتأكد في الأعقاب إلى أن يذهب رسمها (عبد الرحمن محمد ابن خلدون، 2005)، وبهذا علم الاجتماع السياسي عند العلامة ابن خلدون يقوم على بيان طبيعة الملك، وأعمار الدولة من البداوة إلى الحضارة، وأثر الترف في ذلك، كما تعرض لعدل الحاكم وظلمه، وأثر ذلك في ازدهار الدولة وكشف عن عملية التغير السياسي والاجتماعي، فالدولة تنتقل إلى أطوار مختلفة متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا جديدا.

4-3- نظرية العقد الاجتماعي:

برزت نظرية العقد الاجتماعي، والتي يطلق عليها أحيانا نظرية العقد السياسي، في أعقاب عمليات الانهيار والتجديد في البنى المختلفة التي تعرض لها المجتمع الأوروبي، إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر، لتعكس مرحلة تاريخية جديدة لم تعرفها المجتمعات الإنسانية من قبل، وحيث أن نقطة البداية قد تأسست خلال هذه الفترة إلا أن صياغة المجتمع الجديد قد استغرقت الفترة بين عصر النهضة وعصر التنوير، أي الفترة التي استمرت حتى نهاية القرن 18 م وطرحت خلالها تصورات عديدة متباينة ومتناقضة أحيانا.

إلا أنها جميعا تتفق على عدم كفاءة النظام الثيولوجي القديم وتجسداته الدفاعية لتنظيم الحياة المجتمعية، والبحث عن تأسيس نظام جديد يعطي للإنسان مساحة أرحب للمشاركة في صنع النظام الذي يدعم مشاركته في المجتمع ويساعد على النمو الملائم لإمكانياته، لذا فإن الفكر السياسي خلال تلك الفترة حظي بخطوات سريعة نحو طرح العديد من الأفكار التي من شأنها أن تعزز السلطة السياسية وتضمن وجود حدود شرعية متعاقد عليها بين الحكام والمحكومين، تمثل ذلك في الآراء التي جاء بها كل من "هوبز" و"لوك" و"روسو" فيما كون بعد ذلك نظريات العقد الاجتماعي (مولود زايد الطيب، 2007).

4-4- النظرية الماركسية:

شهد القرن التاسع عشر طرح أفكار سياسية متعددة تبلورت في العديد من النظريات، منها اللبرالية، النفعية، والاشتراكية التماثلية، حتى جاء "كارل ماركس" (1818-1883) ليكشف نظرية جديدة سميت نسبة إليه، بالماركسية، فقد تأثر في ذلك لأحوال ألمانيا التي وُلد فيها، وبالأحوال السيئة التي كانت تعيش فيها الطبقة العاملة، خاصة ما نتج عن التصنيع وعدم نيل الطبقة العاملة لثماره، كما تأثر بعدم تطبيق المساواة التي تعد أساس الديمقراطية الغربية، وقد كانت أفكاره تؤكد أن النظام الليبرالي الذي كان سائدا في الغرب، لم يعد يتماشى مع مرحلة التصنيع، وأن ذلك النظام لا يمكن إصلاحه وإنما يجب إحلال بديل عنه (إحسان محمد شفيق العاني، 1986).

ويرى "ماركس" أن النظام الرأسمالي يحمل بذور فنائه في طياته، الأمر الذي يوصل النظام السياسي في تاريخه إلى المرحلة الأخيرة، حيث يراها "ماركس" نظاما اشتراكيا والذي سيرث النظام الرأسمالي، وهو أولى خطوات الشيوعية التي يجب تحقيقها، كما يرى هذا النظام حتمي الحدوث وفقا للمادية التاريخية، وذلك بعد تحقق الوعي الموضوعي للبروليتاريا، حيث تصبح المصالح النسقية وليست الطبقية هي المقياس الحقيقي لوعي السلوك الإنساني، ثم قيام ثورة البروليتاريا التي يعدها كارل ماركس بداية التاريخ حتى يتم التحول إلى الشيوعية وتختفي الطبقية نهائيا، وعليه فإن القمة الجدلية والتطور التاريخي هي قيام المجتمع الشيوعي فيختفي الاغتراب أي الرجوع إلى الشيوعية البدائية.